



حوار ما قبل الرحيل مع

المفكر جمال البنا

أجراه : إميل أمين

وصّف نفسه ربما من باب تواضع العلماء بأنه كاتب إسلامي مع أن الحقيقة هي أنه مفكر إسلامي معاصر من طراز رفيع كرس قلمه، وأعمل عقله في بحر الإسلام الواسع منذ أكثر من نصف قرن ، في العام ١٩٤٦ دعا الأستاذ جمال البنا ، الأخ الأصغر للشيخ حسن البنا ، إلى فهم جديد للدين في كتابه «ديمقراطية جديدة» ، ومع انتهاء الألفية الثانية كان الرجل يصدر للعالم دعوته للإحياء الإسلامي، والتي مطلبها الأول الحرية انطلاقاً من « أننا نطلب الحرية لأنها هي التي تمكنا من المطالبة بما نريد، وهي تحول دون، وقوع عدوان عليها بحيث تظل المطالبة مسموعة، وباقية» على حد قوله .

وقد اتسمت رحلة المفكر الراحل جمال البنا التي امتدت لثلاثة وتسعين عاما بالاجتهادات والروى الفكرية، والروى التي أثار الكثير منها الجدل، غير أنك لا تملك، وإن اختلفت عنه إلا أن تحترم أطروحاته القائمة على الحرية، والباحثة عن العدل، والساعية لعودة «إسلام الإنسان» جوهر مشروعه للإحياء الإسلامي في الألفية الثالثة، وفي داره بأحد أحياء القاهرة الإسلامية العتيقة كان لنا معه هذا الحوار :

● الإسلام دين العالمية لا العولمة كما تقول.. ماذا يعنى ذلك ؟

- هذا ليس من تعبيراتى ، بل من تعبيرات القرآن الكريم الذى تحدث عن رب العالمين ، وكلمة العالمين جاءت ، وتكررت فى القرآن نتيجة لأمرين : الأول هو أن القرآن يتحدث عن الكون بأجمعه سمائه ، وأرضه ، ونجومه ، وكواكبه من ناحية ، ويتحدث أيضا عن بنى آدم أى البشرية كلها من ناحية ثانية ، أما العولمة فهى فكرة مجردة تستهدف جعل العالم سوقا ، والإنسان فيه مستهلك ، ويضخى فى هذا السوق بكل الخصوصيات ، وتبقى المادية هى الحكم ، والسيطر ، والسيط على رقاب الإنسانية .

● من جديد ، بوصفك مفكرا إسلاميا .. لماذا تأخر المسلمون ، وتقدم غيرهم ؟

- قبل أن يتساءل الأمير شكيب أرسلان على هذا النحو تساءل قبله جمال الدين الأفغانى ، وغيره من المفكرين السابقين ، واللاحقين ، وأنا أعزى هذه الظاهرة إلى سببين : الأول هو سوء نظام الحكم ، وفى حقيقة الحال الإسلام لم يعرف حكما إسلاميا حقا خلال الـ ١٤٤٠ عاما إلا سنوات قليلة لـ ١٠ سنوات حكم الرسول ، وستان ، ونصف السنة حكم أبى بكر ، و ١٠ عمر بن الخطا ، وعندما طعن عمر طعنات الخلافة ، وطعنات الصورة المثلى للحكم الإسلامى سيما بعد أن حول معاوية بن أبى سفيان الخلافة إلى مُلك عضود . أما الأمر الآخر فهو أن المسلمين أغلقوا الأبواب على أنفسهم ، وانعزلوا عن العالم فى حين أن الإسلام فى مرحلته الحضارية الزاهية فتح الباب على مصراعيه لمختلف العقائد حتى المخالفة للإسلام فترى جماعات «إخوان الصفا» فى القرن الرابع يقولوا الشريعة دنستها الجهالات ، وأودت بها الغشاوات ، ولابد من غسلها بالفلسفة اليونانية ، وقد قاموا على أربعة مجلدات لرسائل إخوان الصفا ثم ترجموا التراث اليونانى ، هذا الفكر لم يقابل بفكر المحتسب كما اليوم ، ولم يتهمهم احد بالعمالة أو الخيانة ، لذا كانت الأمم تسارع للدخول فى الإسلام لسماحته ، ورحابته ، هؤلاء دخلوا حاملين معهم آثر حضارى ، فالحضارات مثل الوراثة البيولوجية تورث ، وبهذا اكتسب المسلمون حضارات ، وأفكار ، وعلوم من كافة أرجاء

بعد مائة عام لماذا تأخر المسلمون ، وتقدم غيرهم ؟

الكون ، أما فى عصور الظلام فنرى فكر الإبعاد ، والإقصاء هو السائد فى نظر غالبية المسلمين .

● من بين ما يثير الجدل عند العامة فى أقوالك إنه إذا كانت العقيدة ثابتة فالشريعة متطورة .. ماذا تقصد بذلك ؟

- كل النصوص عن الشريعة إنما نزلت لحكمة ، هذه الحكمة هى العدل بصورة عامة ، غير أن تطور الأزمنة ، وتبدلها يغير من أوضاع تلك الأحكام ، ويصبح ما أريد به تحقيق العدل عندما نزل النص لم يعد يحقق العدل فى زمن تطورات المجتمع ، عندئذ يكون علينا العودة إلى الأصل ، إلى السبب الذى نزل من أجله النص ، وهذا ما فعله الخليفة عمر بن الخطاب عندما أوقف مصرف المؤلفة قلوبهم ، ونفس الأمر عندما أوقف تطبيق الحدود فى عام الرمادة ، إذن هناك فهم للنص ، وليس إعمال لحروف النص ، والقرآن يقول « ، والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما ، وعميانا » أى أنهم اعملوا التفكير لذلك اوكد على أن العقيدة شيء ، والشريعة شيء آخر .

● ماذا عن القول بوجود تضاد ما بين العقل ، والنقل فى الإسلام كما يزعم بعض المفكرين الغربيين ؟

العقل لا يستطيع فهم العقيدة تماما ، فلو أن العقل يستطيع أن يصل للصورة المثلى للنقل لما أرسل الله أنبياء أو رسلا لاكتفى بالفلاسفة ، وهم أرقى من استخدام العقل ، لكن العقل يقف عند باب الله تعالى لا يستطيع أن يدخله أو يفهمه لأن الله خالق الكون بأسره ، والكون بأسره ذرة فى نظر الخالق لذا ليس من المعقول أن يتوصل لطبيعة الله ، ولا يحيط بصفاته أو خصوصياته فلا بد إذن من رسول من الله تعالى يعرف البشر بقدر ما يستوعب العقل البشرى عن الله تعالى ، وهذا ما يقوم به العقل ، وتتكلم عنه العقيدة أما الشريعة

فمجالها العقل كله .

● **ماذا يعنى بالنسبة لك أمر « مصادرة » عمل فكري سواء أكنت مؤلفة أو قام على تأليفه غيرك ؟**
الوصاية على الفكر مرفوضة، سواء أكانت من قبل أشخاص أو مؤسسات، وحتى إذا جاءت في دستور ، كل هذا عبث، ومما حكا مع التطور ، وتجاهل لدرس التاريخ، والذي يقودنا للقول بأن حرية الفكر بالنسبة للمجتمع هي كالهواء بالنسبة للإنسان، إذا امتنع الهواء عن الإنسان اختنق ، وإذا امتنعت حرية الفكر عن المجتمع اختنق أيضا فهي أصل رئيسي لا يمكن مطلقا تجاهله أو الافتئات عليه ، أو محاولة الانتقاص منه ، ومرجعيتنا في ذلك، وثيقتان عظيمتان « مع الفارق » اتفقنا على هذا، القرن الكريم ، وحقوق الإنسان يقول القرآن « فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر » ، « لا إكراه في الدين » أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » ، ولو شاء ربك لجعل الناس أمة، واحدة ... إذن لا مجال لفكرة، وصاية على الفكر في هذا العصر .

● **هل تعنى حركات المصادرة للإعمال الفكرية أننا نعيش ردة فكرية في العالمين العربي، والإسلامي؟**

- هي ردة بالنسبة لما كانت عليه مصر، والعالم العربي في الأربعينات. هذه كانت المرحلة الليبرالية التي ظهر فيها مفكر يصدر كتاب « لماذا أنا ملحد » فلا يتصدى له أحد بمصادرة، ولا محاكمة، ولا تفريق بينه، وبين زوجته ، في حين يقوم مؤلف ثاني بتأليف كتاب « لماذا أنا مسلم »، وهكذا ينتهي الأمر، سجال حضارى يمي فيه الباطل الى الزوال، ويبقى الحق دون دعاية، وجلبية، وصخب، وبدون حجر على فكر أو مصادرة رأى، وبدون تهوين أو تهويل، والدليل ما جرى مع رواية آيات شيطانية لسليمان رشدى ، رواية تافهة، وساقطة بكل المعايير كان الممكن أن تذهب في طي النسيان لولا فتوى الإمام الخميني التي ساعدت على انتشارها، وفي كل الأحوال التطرف الفكرى، والردة الفكرية، وجهان لعملة، واحدة .

● **ما السبب في تلك الردة في تقديرك ؟**

- السبب هو تحول رجال الدين إلى أوصياء على الدين، فما أن يموت الأنبياء حتى يسعى القيمون على المؤسسات الدينية للوصاية على الدين، والمتدينين، وهذا جزء من تطور كل الأديان ، ولهذا لم تتخلص أوروبا من تلك الردة الفكرية إلا بعد انتفاضتها على المؤسسة الدينية، وظهور عصر النهضة، نحن من أسف أغلقنا باب الاجتهاد كمسلمين منذ القرن الرابع أو الخامس الهجرى، وهكذا أعطى المسلمون العقل أجازة نحو ألف عام شل، فيها العقل الإسلامى، والنتيجة كما ترى .

● **كيف نطالب العالم باحترامنا، ونحن لا نحترم أصحاب الفكر فينا ؟**

- نحن أسوأ دعاية للإسلام، وللأديان كافة ، وهنا أتذكر مقولة الدكتور مراد هوفمان الألماني الذي اعتنق الإسلام، والتي صرح فيها بالنص « أحمد الله أنى أسلمت قبل أن أعرف المسلمين»، ومعنى ذلك أنه ربما لو كان قد عرف المسلمين في، وقت سابق لما كان قد أسلم .

● **ماذا عن مبررات مصادرة كتابك عن المرأة المسلمة بين تحرير القرآن، وتقييد الفقهاء ؟**

- أنا أكاد أجن بشأن ما يسوقونه من حجج في مصادرة هذا الكتاب، وقبله كتاب آخر عن فشل الدولة الإسلامية، وعندهم أن ما قلته بشأن حجاب المرأة هو السبب ، وأنا مصمم على رؤيتي أن الشئ الوحيد الذي جاء به القرآن عن زى المرأة هو إغلاق فتحة الصدر، والقرآن لم يذكر صراحة، وعلى، وجه التحديد مكانا يغطى إلا فتحة الصدر ، ولم يتكلم عن زى او نماذج لباس بعينها ، والقرآن يعلم أن ظروف المرأة تتغير بتغيير الزمان، والمكان، والأعراف، والتطور، والظروف المناخية هذه هي مبررات المصادرة .

● **هل يعنى هذا أن الأزهر أضحى محكمة تفتيش عصرية ؟ وإلى أين يقودنا هذا النسق الفكرى**

في زمن العولمة ؟

طبعاً ما من شك ، أصبح محكمة تفتيش يضع قضاتها العمائم على رؤوسهم، أما إلى أين نمضى فالى الامام خطوة، وإلى الوراء خطوتان، ولهذا فإننا نخسر العنصر الثمين الذى لا يعوض، وهو الوقت ، فبعد أن كانت الفجوة بيننا، وبين الدول المتقدمة نحو مئتي عام، اليوم تتسع، وتعمق بسبب القائمين على المؤسسات

الدينية الذين من مصلحتهم بقاءها في، وضعها الساكن الراهن، وبما لها من نفوذ، ومكاسب مالية، وأدبية، وبهذا يتحول الإسلام إلى اكليروس، وكنيسة، وهو ما لم يكن، ولم يوجد في تاريخ الإسلام أو في منهجيته الروحية أبداً .

• كيف تقيم دور الأزهر عبر التاريخ، وفي الآونة الأخيرة ؟

مرت على مصر أوقات كان فيها علماء الأزهر هم الزعماء الطبيعيون للشعب، ولما وجدوا أن العهد التركي أضحى ظالماً، وطاغية قاموا عام ١٨٠٥ بتولية محمد علي الحكم، وقد تقرب إليهم في بادئ الأمر، ورأوا فيه الاستعداد للتعاون معهم فخلعوا عليه خلة الولاية على أن يحكم بالعدل، وإلا عزلوه، وحاربوا الوالي التركي، وعندما بعث إليهم الباب العالي من يقول لهم «، وأطيعوا الله، وأطيعوا الرسول، وأولى الأمر منكم .» قالوا الطاعة بالمعروف، وأنتم لا طاعة لكم في ظلمكم، غير أنه من أسف شديد بمجرد أن تملك فرق بين الأزهريين، وأخذ يدس بينهم، وشيئاً فشيئاً جردهم من الأوقاف بحيث بات الأزهر يتدحرج خطوة في خطوة إلى أن أصبح ملحقا للدولة، وشيخه موظف في الدولة، ولو برتبة رئيس الوزراء .

• هل يفهم من هذا عدم رضائك على الأزهر ؟

لا فائدة في الأزهر بالمرة، وأنا مؤمن بكلام الإمام محمد عبده من حيث ضرورة « قلب السلطة الدينية »، وقلبها هنا أقرب ما يكون إلى تدميرها سيما، وأنه عاش فيها، وعرف أنها عثرة كؤود في سبيل التقدم .

• ما هي أبعاد مشروعكم الحضاري لدعوة الإحياء الإسلامي التي تطالبون بها ؟

- ينطلق مشروع الأحياء الإسلامي، ويتمحور حول فكرة رئيسية هي « الإنسان المستخلف »، والبرهنة على هذه الفكرة بدلائل من القرآن الكريم، وتريد دعوة الإحياء العودة مرة أخرى إلى إسلام الإنسان، وترى أن روح العصر الحديث تساعد، وتؤكد على ضرورة إعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية على أسس « إسلام الإنسان، وليس إسلام السلطان ».

• ماذا عن المعالم الرئيسية لمشروع إسلام الإنسان كما ترونه ؟

- المبادئ كلها موجودة في صميم القرآن، غير أن من أهمها :

الإنسان المستخلف هو الغاية التي جاء لها الإسلام فالإنسان هو الغاية، والإسلام هو الوسيلة، المساواة في الحقوق، والواجبات بين الناس جميعاً، وبلا استثناء هي أساس مجتمع الإنسان المستخلف، العودة إلى القرآن الكريم باعتباره كتاب هداية، والسنة يجب أن تضبط بضوابط القرآن، واعتبار الحكمة أصلاً من أصول الإسلام، ومن الأفكار التي قد يراها البعض مثيرة للجدل استبعاد فكرة أن الإسلام يسيطر على كل شيء فالإسلام على أهميته القصوى ليس إلا بعداً، واحداً من أبعاد متعددة للحقيقة كالعلوم، والفنون، والآداب، والفلسفة التي تنطلق كل من منطلقها الخاص، وتقدم عطاءها الذي، وإن اختلفت عن عطاء الدين فإنه لا يزاحمه كما لا يستبعده الدين، أضف إلى ذلك حرية الفكر، والاعتقاد مطلقة، والعلاقة مابين الأديان هي علاقة تعايش بجانب تحرير المرأة من الدونية التي جاءت بها بضعة أحاديث ضعيفة أو موضوعة، وتقرير مساواتها بالرجل .

• هل يعني هذا المشروع أن منظومة المعرفة في الإسلام القائمة الآن في حاجة لإعادة قراءة جوهرية ؟

- هذا صحيح إلى أبعد حد، ولا سيما، وإن تلك المنظومة، وضعت في ظل الدولة الإمبراطورية الإسلامية مثل العباسية، والتي عاصرها أحمد بن حنبل الذي عاش في زمن المأمون. لذا أنا دائماً أتساءل هل كان من الممكن لهؤلاء الأئمة الذين، وضعوا منظومة المعرفة الإسلامية أن يتحرروا من حكم، وطبيعة تلك الدولة الإمبراطورية ؟

بالطبع لم يكن ممكناً، وإن كان بعضهم حاول، وتعرض لخسف، وعسف شديدين. هؤلاء، وضعوا إحكامهم

فى ظل دولة الخلافة الإمبراطورية فجاءت مجافية لأحكام القرآن، والرسول، ومطبعة لأحكام السلطان سواء بحسن نية أو بالضرورة، كل هذا التراث لا يمثل حاضر اليوم، ولا يربطنا به شيء. لماذا نتقيد به إذاً، ونعطل عقولنا، ونفكر بعقل الأسلاف، والذين كانت تقتضى الضرورات أن يسافر أحدهم شهوراً للبحث عن حديث، واليوم تحصل من الإنترنت على ما تشاء بلمح البصر؟ .

• هل تخشى على الإسلام من المؤسسات الدينية الإسلامية؟

ميزة الإسلام أنه لا مؤسسة دينية له، الإسلام اختلف عن كل الأديان الأخرى فى أنه استبعد المؤسسة الدينية، وندد بحكم الأحياء، والرهبان، وفى سنوات الإسلام الأولى فى زمن الفكر الإسلامى النقى غير الملوث استعصى على كل صور التطوع التى أريدت له من قبل الحكام، والسلاطين، ليس فى الإسلام رجال دين، بل رجال علم أو فقه أو شريعة .

• فى نظرك ما هى الآليات اللازم توافرها لقيام نهضة إسلامية عربية على أبواب القرن

الحادى، والعشرين؟

- فى مجال الفكر، والاعتقاد تأتى الحرية دون قيد أو شرط كآلية أولى، فحرية الفكر الدينى بالنسبة للمجتمع كالهواء بالنسبة للفرد، إذا امتنع الهواء عن الفرد اختنق، والقرآن الكريم فى هذا السياق كان، واضحا، وضوح الشمس فى ضحاها، والقمر إذا تلاها فيقول « فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر »، وفى موضع آخر يقول « أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين » فالدين ليست مهمته أن يهدى الناس جميعا، لكن مهمته أن يبلغ الناس جميعا، والخالق سبحانه لن يضره أو يؤثر فى ملكه لا إيمان المؤمنين، ولا كفر الكافرين، هذا فيما يتعلق بحرية الفكر، والاعتقاد .

أما فيما يتعلق بالعمل، والدنيا فالشعار هنا هو العدل، وليس الحرية، كانت النظرية الرومانية القديمة، والراسمالية الحديثة ترى أن صاحب المال حر فى أن يفعل بما له ما يشاء « بمالى أفعل ما بدالى » غير أن الإسلام رأى فى ذلك خطأ فادحا، أنت لست حرا بالإطلاق فى مالك، أنت مخول باستخدام المال، وعندما تسيء للإنسانية به، ومن خلاله لا يصبح لك حق فيه، وهنا أتذكر مقولة ابن القيم، والذى فى إحدى لحظات الإنهام، والتفتح قال تعريفا مثيرا ربط فيه بين العدل، والشريعة، وهو إنه « حيثما يكون العدل تكون الشريعة » فإذا اختلعت الشريعة بما هو خلاف للعدل سواء بطريق التفسير أو التأويل أو بأى طريق آخر، وجب على هذا العنصر الدخيل الخروج فورا، وإذا لم يدخل فى الشريعة شئ من العدل فيجب إدخالها على الفور .

• قضية الضبطية القضائية للأزهر هل تراها فى إطار الرقابة المشروعة أم أنها مطرقة على

حرية الفكر، والإبداع؟

- أراها، وصمة عار بالنسبة لهم، ووسيلة تقييد بالنسبة لحرية الفكر، وعودة إلى زمن الحكم الدينى فى أوروبا فى القرنين الخامس عشر، والسادس عشر، وعودة لزمن محاكم التفتيش، وآخر ما يود هؤلاء، وضعه لجنة تحدد الفتوى، وتعطى تراخيص لمن يكون له حق الفتوى .

• فى الوقت الذى يعادى فيه جمهور علماء المسلمين العلمانية تأتى أنت لتقول إن العلمانية

ليست ضد الدين كيف يستقيم هذا التضاد؟

- بداية أود أن ألفت إلى أن تعبير العلمانية ربما لا يكون دقيقا بما هو كاف، والأفضل استخدام لفظ الدنيوية كترجمة أدق من العلمانية، هذه الدنيوية لها معنيان الأول أنها تفصل بين الدين، والسلطة بما فى ذلك الحكم، والسياسة، وهناك معنى آخر أعمق من هذا، وهو أن هذه العلمانية لا تؤمن إلا بالحياة الدنيا. لذا فهى دنيوية هذا معنى فلسفى، وقلم يتصوره إلا القلة من المفكرين فإذا كان المعنى الأول هو الشائع أى الفصل بين الدين، والسلطة فالإسلام ليس فيه مؤسسة دينية أو كنيسة حاكمة يستلزم الأمر فصلها عن الدنيا، لذا فإنه ليس هناك صراع مع العلمانية بهذا المفهوم، أما إذا أريد بالعلمانية الحياة الدنيا فحسب فهذا بالطبع ليس ضد الإسلام فحسب، بل ضد كل الأديان .

وأظن أن اللبس فى الفهم يرجع لسوء إدراك ما جرى فى أوروبا من ثورة على تسييس الفكر الدينى، وعلى

المؤسسة التي أرادت أن تحكم باسم الله لا على الدين نفسه، سيما وأن هناك أحزاب دينية لا تزال قائمة في أوروبا حتى الآن مثل الحزب الاشتراكي المسيحي في ألمانيا، وغيرها في إيطاليا .

• **هناك جدل حول الإسلام، وكونه دين أمة أو كونه دين دولة ما الفرق بين الوصفين في تقديرك، وإلى أيهما تنحوا؟**

- أميل كثيرا لفكرة الإسلام دين أمة، وليس دين دولة، سيما، وأن فكرة الدولة ترتبط دائما بآليات، وأدوات القهر، والجبر فلا دولة بدون جيش أو شرطة أو سجون، وضرائب، هذه أبرز خصائص الدولة المعاصرة، أما الدولة الإسلامية التي قامت في المدينة لا تتوافر لها تلك الصفات، كانت دولة مؤسسها الرسول مما يبعدها طولا، وعرضا عن فكرة الدولة القاهرة، وحتى لو، وجدت تلك الخصائص لتقهما ذلك في إطار أن رئيسها رسول موحى إليه، وهذا ما لم، ولن يتكرر ثانية، والقرآن حدد، واستخدم أدوات القصر في رسالة الرسول أنه مبلغ، وليس مسيطر، ولا حفيظ، ولا، وكيل فإذا كان الرسول حامل الدعوة ليس له سيطرة فمن يجزؤ على القول بفكرة إسلام الدولة أو دولة الإسلام؟

• **هناك من يدعى أن فكر المواطنة غربي، وافد، وأظن أنه جذر عميق في الإسلام، وإليه يعزى نجاح المجتمع الإسلامي الأول... هل أنا مخطئ أم مصيب؟**

- مصيب بكل تأكيد سيما، وأن الذي، وضع أساس المواطنة هو الرسول نفسه، وقد، وفد إلى المدينة، ووجد أن هناك ثلاث فئات من السكان الأنصار أهل المدينة الأصليين، و المهاجرين من عرب قريش الذين هربوا من مكة، واضطهادها، واحتموا في الأنصار في المدينة، واليهود الذين كانت لهم جاليات قوية، ودخلوا مع الأنصار في تحالفات.. وفي تلك الأيام لم يكن هناك مجال لكتابة شئ سوى القرآن غير أن الرسول كتب، وثيقة بعض الكتب التراثية تسميها صحيفة المودعة، والبعض الآخر اسمها دستور المدينة قال فيها « إن الأنصار، والمهاجرين، واليهود المتحالفين مع الأنصار هم أمة، واحدة لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، وهم يتكافلون بالمعروف، ويدافعون عن المدينة .»

أفضل استخدام تعبير الدينية لا العلمانية لرفع الالتباس

خطبة عظيمة، وإن كانت بلغة قديمة يصعب أن تفهم اليوم، وهنا نجد أول صورة للمواطنة التي لم يصل إليها المجتمع الحديث حتى الساعة... لماذا؟ لأنه اعتبر المهاجرين الغريباء عن

المدينة، والذين لا علاقة لهم بها مثلهم مثل أهلها بالمرة، وهذا حق لا يناله المهاجرون اليوم في أي بقعة من بقاع العالم .

ورغم أن إشكالية اختلاف الدين كانت في ذلك الوقت أكبر إشكالية إلا أن الوثيقة أمنت لليهود البقاء على دينهم دون إجبار على تغييره. وكانوا يحتكمون إلى الرسول عند الاختلاف. هذه الوثيقة هي الأساس العضوي، والجذري لفكر المواطنة في العالم الحديث، ولا أمارى إن قلت إن الثورة الفرنسية رغم علاماتها التقدمية لم توجد ما أوجدته، وثيقة المدينة، ولكن لأننا نعيش في عالم الجهالة فالعملة الرديئة تطرد العملة الجيدة، ولا نسمع إلا عن السلبيات، ولا يشير أحد إلى عالم الإيجابيات في الإسلام .

• **يرى البعض أن المرأة المسلمة تعيش حالة من الإحجام على عكس ما تمتعت به في صدر الإسلام من الإقدام ما السبب؟**

- حينما أتذكر المرأة الأولى في الإسلام أتذكر تلك المحاربة، المتاجرة، والمشاركة في نشر الدعوة، أتذكر المرأة التي اجتمع المسلمون في بيتها « أم شريك » حتى يختاروا عمر بن الخطاب، وأتذكر عائشة التي تقود الجيش، ويهتم لها الصحابة، أتذكر النساء نصيرات الإمام على اللواتي كن يضرب بهن المثل في البلاغة. والحق أن التساؤل ليس فقط عن السبب لما جرى لوضع المرأة المسلمة، التساؤل ينسحب على كافة أوجه الإسلام كالحكم، والفقه، والشريعة، والتي خضعت جميعها لضروريات الإمبراطورية الإسلامية في عصور شتى كل منها اختصم من سماحة الإسلام الأولى، الرسول كان بتعبير اليوم « جنتلمان » مع النساء، نراه

يوصى بالقوارير ، كم أحب المرأة ، وقدرها ، فعندما كانت إحدى صديقات خديجة تزورها يقوم بفرش ردائه لها ، ولما تقبل عليه ابنته يقوم لها ، هذه شيم الفرسان ، وأخلاقياتهم. ولن تعود صورة المرأة المسلمة إلى سابق عهدها البراق إلا مع عودة مساحة الحرية لعموم أركان الحياة في الإسلام .

• إذا طلب إليك اليوم توصيف علاقة الغرب بالإسلام، والإسلام بالغرب ... كيف توصف هذه

العلاقة الآن سيما في اضطراباتنا الأخيرة ؟

- هناك فهم ملتبس من الناحيتين ، الغرب من أيام الحملات الصليبية لديه صورة مغلوطة ، وسيئة عن الإسلام ، ونحن منذ أيام الاستعمار لدينا صورة سيئة عن الغرب ، وما أود قوله إن الغرب ليس هو الحكام ، هؤلاء يتغيرون ، ويتبدلون فيما البشر هناك في غالبيتهم طيبون ، ولو فهموا الإسلام جيدا لربما أصبحوا كلهم مسلمين ، بل وأحسن من المسلمين التراثيين ، والوارثين إن جاز التعبير. ولكن هناك من يعبث ، ويصطاد في الجو الملتبس لترويج بضاعته الفاسدة ، مثل صناع الأسلحة الذين لا فائدة لهم في أن يعم السلام بل فائدتهم الحقيقية في شيوع الحروب ، وانتشارها ، ونحن نعلم أن الاقتصاد الأمريكي في جانب بالغ من الأهمية منه مرتته بصناعة الأسلحة ناهيك عن صناع اللهو ، والفاحشة الذين يريدون للشر أن ينتشر ، وصناع الأدوية المدلسة ، والمغشوشة ، والذين يستعملون دولنا كحقول تجارب هؤلاء ، وغيرهم كثر لعبوا دورا بالغ السوء في تلبد الأجواء بين الإسلام ، والغرب ، لكن رغم ذلك لا يمكننا القول إن هذه عوامل أصيلة في الشعوب الغربية ، ولهذا لا يجوز لنا أن نتهم شعوب العالم الغربي عن بكرة أبيها بكرهيتها للإسلام سيما ، وأنها تأخذ خلفياتها من ، وسائل الإعلام المسيطر عليها من قبل جهات لا تخفى على أحد من مصلحتها تشويه صورة الإسلام ، والمسلمين في عيون الغرب ، والغربيين حتى تظل لها السيادة ، والريادة ، والكلمة العليا المسموعة .

• لكم، وجهة نظر تجاه الجاليات الإسلامية في الغرب ... رؤية، وسطية .. ما ملامحها ؟

مع تدفق المهاجرين في أواخر القرن العشرين إلى أوروبا ، وأمريكا ظهرت على السطح جاليات ، وأقليات إسلامية ، هذه سعت بأقدامها للغرب ، وللموضوعة ، والإنصاف نقول لقد فتح لها الغرب أبوابه ليعملوا فيها ، ويتعلموا منها ، ويتكسبوا أرزاقهم من خلالها لذا كان لابد من أن تقوم علاقة بينهم وبين هذه العوالم ، والعواصم ، إذ ليس معقولا ، ولا مقبولا أن يقفوا ضد هذا البلد أو ذلك الذي أكرم ، وفادتهم أو انفصلوا عنه ، التعايش هنا ضروري ، والجسور حتمية ، ومن أسف فإن بعضهم كان يعيش على معونات تلك الدول ، وفي ذات الوقت يقوم بسبها ، وقذفها بل ، ويحرض ضدها بالعنف ، وأظن أن ، وجهة نظرنا بينها في كتاب لنا حاول الأزهر مصادرته ، واسمه « مسؤولية فشل الدولة الإسلامية في العصر الحديث » هذا الكتاب يقع في عشرة فصول ، الفصل الرابع فيه عنوانه بين « التميع ، والتقوقع » ، ويتناول ، واقع حال الأقليات الإسلامية في المجتمع الأوروبي فبعض تلك الأقليات الإسلامية في المجتمع الأوروبي لجأ للتقوقع مثل الأكراد في ألمانيا ، وبعضها انتهى به الحال إلى « التميع » مثل عمال الجزائر في مارسيليا بفرنسا ، هؤلاء ، وأولئك عجزوا عن أن يوجدوا صيغة للتعايش في المجتمع الأوروبي مع الاحتفاظ بالهوية الإسلامية ، وفي هذا الكتاب ، وذلك الفصل تحديدا آليات ، ووسطية للتعايش على سبيل المثال ، المرأة إذا ، وجدت حرجا أن تدع شعرها عاريا يمكنها أن تلبس قبة رأس إن كان في لبس الحجاب إشكالية سيما ، وإن كثرات في المجتمعات الأوروبية يفعلن ذلك .

• إلى أي مدى في اعتقادك ساهم صمويل هنتنجتون المفكر ، والمنظر الأمريكي في الإساءة

للعلاقة بين الشرق ، والغرب من خلال أطروحته لصدام الحضارات ؟

- هنتنجتون أساء تكييف الصراع أو كيفه بطريقة الكاوبوي ، وليس بطريقة العالم ، توازن القوى أمر طبيعي ، كما حدث بالنسبة للفتوحات ، والغزوات الإسلامية ، عندما تظهر أمة لها فكر شعبي يكره الطبقة ، ويؤمن بالمساواة ، ويعلى من قيم العدالة ، وبجانبه دول هرمة طبقية تستغل الناس فمن الضروري أن يحدث نوع من التحرك بحيث إن هذه الدعوة الجديدة الناشئة الشابة تدخل على هذه الثقافات الطبقة القديمة ، وتجدها . ميزان القوى هذا كما الأوانى المستطرقة فلا بد إذن من الصدام .

وأنا أرى أنه بالفعل هناك نوع من الصدام غير أن رؤيتي لا تقف عند مرحلة الصدام ، بل تتجاوزها فدائما

بعد الصدام تأتي مرحلة السلام ثم التلاحق ، الدولة المنتصرة تأخذ من ثقافة الدولة المهزومة ، وهذا ما حدث في أحسن صورة بالنسبة للغزوات الإسلامية في عهدها الأول هذه هي النظرية الإسلامية في مسيرة الحضارات ، أما النظرية الأمريكية فلا تؤمن إلا بالعنف، والوحدة، والانتصار، وبالتصادم غير الخلاق .

• ألا تجد مبرر عند رجل الشارع إذا امتلكته قناعة بأن العالم العربي، والإسلامي يعيش تكراراً لحالة الحروب الدينية من جديد ؟

- الحروب الدينية لم تكن في سبيل الدين إلا من ناحية أن البابا هو من قام بتجنيدها، وأرادها ، وأدارها ، البابا أراد أن يحول السيوف الأوروبية من بعد ما كانت تقاتل بعضها بعضاً إلى الشرق، ولم يكن لها علاقة بجوهر المسيحية فالمسيحية ديانة محبة لا حرب، والمسيحية في ذاتها كانت أبعد ما تكون عن المؤسسة الدينية التي حكمت في، وقت تلك الحروب، وفي تقديري أن الإرث العدائي أبعد كذلك من زمن الحرب الدينية، وموجود من أيام روما، وقرطاجنة، عندما ظهر هانيبال، وكبد الرومان في عقر دارهم خسائر فادحة ، غير أن هؤلاء، ولأنهم متمرسين على الكفاح، والقتال عداواً، وانتصروا ، وبحال من الأحوال فإنني أتفهم الحروب الدائرة الآن في سياق أوسع هو سياق عقلية العسكر الساعية للتطاحن لا عقلية الدبلوماسية المتطلعة للفهم أو عقلية المفكرين التي تشدد حالة من الاستقرار الدولي، العسكر تحكمهم الاعتبارات الضيقة، ولا مجال فيها لإعمال العقل .

• إلى أين تمضي الإمبراطورية الأمريكية في تقديرك ؟

- حسب المعطيات الوضعية الأرضية أنه لا بقاء مطلق لأي دولة أو إمبراطورية ، فما من أحد خيل إليه أن الإمبراطورية الرمانية، والتي دانت لها الأرض نحو ألف عام يمكن أن تتهار، لكنها أنهارت، وأضحت أثراً بعد عين، وكعب أخيل اليوم بات داخل أمريكا، وفكرها التوسعي الإمبراطوري ، فهي لم تغي دروس الماضي سيما القريب منها مثل ما جرى في فيتنام، وكان أن أفحمت نفسها في حرب العراق، ويبدو أن إدارة بوش لا تود أن تبارح موضعها دون أن تشن حرب جديدة مرشحة إيران لأن تكون هدفها، وهذا ما يقودنا للقول بأن تلك الإدارة كانت الحد الفاصل في إنهاء الآمال، والأحلام الإمبراطورية الأمريكية بسبب عسكرتها لكل أوجه الحياة، وغطرستها، وغرورها الإمبراطوريين غير المسبوقين .

• عام ١٩٤٥ أصدرت أول كتاب لك « ثلاث عقبات في الطريق إلى المجد ، هل لازال لتلك العقبات

حضور في عالم اليوم عربياً، وإسلامياً ؟

- نعم هو كذلك ، ففي النصف الأول من القرن المنصرم ، كنا نتحدث عن الفقر، والجهل، والمرض ، الآن، ومن أسف أشد تضخموا، وأصبح هناك ما هو أسوأ فساد الحكم .. وهذه كلها تحول دون أن تصل الأمة إلى المجد أو أن تستعيد، وجهها المشرق الغابر ، الأمة لا يمكنها أن تسلك طريق التقدم، وهي جاهلة ، فقيرة ، مريضة ، وأذكر أنه عند إصداري للكتاب كانت الحياة الليبرالية أفضل من حالنا اليوم بمراحل، فحكم العسكر آخر مصر ١٠ سنوات، وهزيمة عام ١٩٦٧ أخرت مصر ١٠٠ سنة أخرى على الأقل، ولم تقدر حتى الآن على الخلاص من براثنها النفسية، والأخلاقية .

• في ظنك هل من نظام حكم معين قادر على صوغ نهضة عربية إسلامية حقيقية ؟

- أنا أؤمن بفكرة قيام حزب ديمقراطي اشتراكي إسلامي، ورغم أن شكل الطرح عسير إلا أنه ممكن فقط يحتاج إلى عقلية متطورة لتشكيل هذه السبيكة ، ذلك لأن الديمقراطية تمثل الحرية، والاشتراكية تعبر عن العدالة، ثم الإسلام كصبغة أساسية في منطقة يلعب فيها الدين الدور المؤثر، والفاعل الأول، والأكبر، الإشكالية الحقيقية في أن تجد منظراً أصيلاً قادراً على تحقيق هذا الطرح، وهو أمر غير مستحيل .